حديقة المقتطف

الجزء الثاني

من السنة الثالثة والعشرين

شباط الموسيقى والتصوير

لايلى ابو شكه

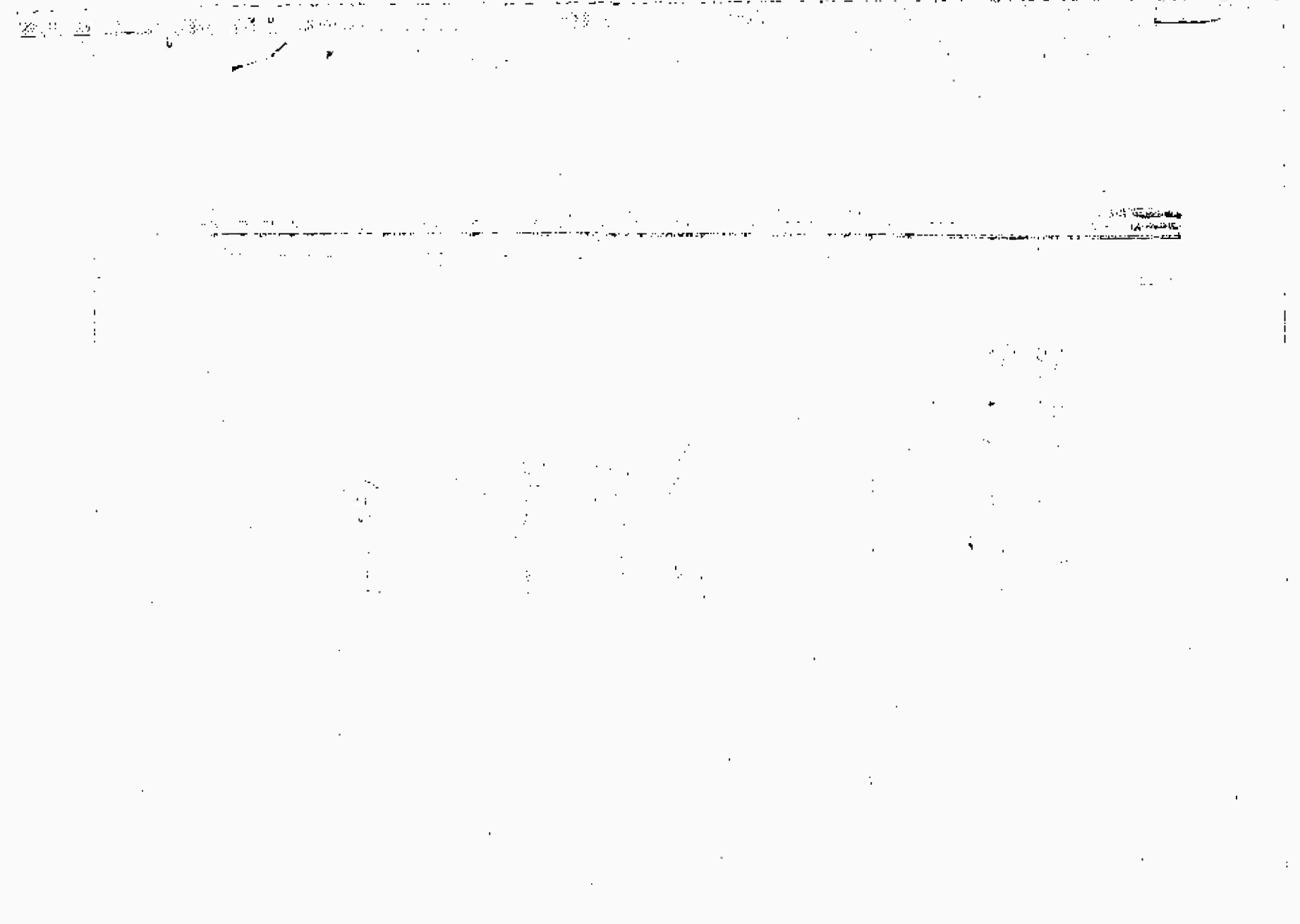

الحركة الفنية

في سوريا ولبنان

تقوم بجانب الحركة الأدبية في هذه البلاد حركة فنية مباركة قوامها الموسيقى والتصوير . وسأعرض في هذا الفصل للجانب المختص بالأدب من الموسيقى الحديثة وقديماً رافقت الموسيقى الأدب وآخته : وستبقى ترافقهُ وتؤاخيه ما بقيت من عناصره

لا تزال النهضة الموسيقية في لبنان على الخصوص في مستهلها ، وكلّ بداية تبحث عن منكا لها وكثيراً ما يضطرها الاتكاء الى التقليد ، والتقليد لا يشتدّ خطرهُ إلاّ اذا ماتى المقلّد وامتزج فيه واستُعبد لهُ . واذا قلت التقليد لا أقول الاقتباس ، فمصر اقتبست عن الترك في الماضي ولم تقلدهم ، بل عرفت أن تطبع الالحان المقتبسة بالطابع الشرقي المصري ، ولم تكن الموسيقى التركية والموسيقى المصرية متباينتين متنافرتين كالشرقية والغربية مثلا

على أن لبنان يستهل عهده بالتقليد الخطر لا بالاقتباس . ولو انهُ يقتبس عن الموسيقى الغربية ما يوائم المزاج الشرقي فهان الأمر ، ولكنهُ يقلّد الغربيين تقليداً خاصًّا ويحاول احلال الموسيقى الغربية الصرف محلّ الموسيقى الشرقية . فقد لحن للموسيقار اللبناني الشهير الاستاذ وديع صبرا مسرحية « الملكين » للاب الفاضل الخوري ماردن فحسن تلحيناً فرنجيًّا وعرضت هذه المنّاة في بيروت على أنها أول منّاة « اوپرا » شرقية في الشرق الأدنى

وهذا القول ترافقهُ غلطتان : الاولى أن منّاة « الملكين » ليست شرقية بل غربية فرنجية متسلقة على الكلام العربي ، والأنكى أنك تسلخ ساعتين ونصف ساعة على سماعها من غير أن تقرع أذنيك نغمة شرقية . والثانية أن هذه المنّاة ليست فاتحة عهد في الموسيقى الشرقية بالشرق الأدنى . فقد نظم الخوري ماردن فحسن

هذه المسرحية في العام ١٩٢٧ ولحنها الأستاذ صبرا في العام ١٩٢٨ . ولم تعرض رسميًا في بيروت إلاَّ في أواخر مايو الفائت . في حين أن المسرحيات الغنائية يرجع عهدها في الشرق الى ستين سنة ، فأول من لحن مسرحية شرقية هو الموسيقار الأرمني التركي جوخه جيان الذي وضع مغناة « لبلي جي حورحور أغا » الهزلية وأول من لحن مسرحية في مصر هو الموسيقار كامل الخلعي . فقد لحن هذا الموسيقار عدة مسرحيات لجمعية « المعارف » التي كان يديرها نسيم المندراوي ، من كبار اساتذة التمثيل في مصر . ولم يكن في مصر ، في ذلك الحين (١٩٠٣) إلاَّ فرقة واحدة لامعة هي فرقة اسكندر فرح ، متعهد فقيد الطرب الاشهر الشيخ سلامة حجازي ؛ وفي جملة المسرحيات التي لحنها كامل الخلعي رواية « الملك اختاتون » وعدد من المسرحيات الفرعونية المصرية لأن جمعية « المعارف » كانت تعمل على نشر الثقافة المصرية القديمة ، وثاني من لحن المسرحيات في مصر هو بطرس الشلفون ، رئيس جمعية « الآداب » المصرية . فقد لحن مسرحية « اسما » و « هرون الرشيد » و « التي ايوب » و « الملك مزيدات » و « ابو حسن المغفل » وثالث من لحن المسرحيات هو اسكندر الشلفون ، الموسيقار الثابتة الذي قتل في حادث انهيار مقهى « كوكب الشرق » في بيروت . فقد لحن لجمعية الاتحاد المصرية عدة غنائيات « أوبرا » منها « النعيس » و « حرب العرب مع شارل مارتيل » و « الهوى العذري » و « الدرق داجو » و « السبايا » . وغيرها وللشيخ سيد درويش عدة غنائيات براوح عددها بين خمس عشرة وعشرين

***

ويقول الاستاذ صبرا ان مغناة « الملكين » هي أول « اوبرا » عربية ملحنة بحسب اصول فن الموسيقى الراقي ومع احترامي وتقديري العظيم لعبقرية الاستاذ وديع صبرا في الفن الموسيقي الذي لايجاريه فيه كثيرون حتى في اوربا نفسها لا اجد بدًّا من القول بأن مغناته «العربية» لم تصادف اي استحسان لانها ليست « عربية » . وقد تكون اول مغناة وضعت ولحنت في لبنان ولكنها ليست لبنانية ولا شأن لها البتة للموسيقى التي يريدها على اساس الاوضاع الشرقية

فن التصوير في بنائه

الشعر والتصوير والموسيقى ، ثلاثة فنون من مكملات الحياة كل منها ثالوث يجمع — مع استقلاله — بين الاقاليم الثلاثة ، ففي الشعر تصوير وموسيقى، وفي الموسيقى شعر وتصوير ، وفي التصوير موسيقى وشعر . على ان التصوير اقل حظاً في المجموع من الفنين الآخرين وإن يكن الشعر أوفر حظاً من التصوير فهو أقل حظاً من الموسيقي ، وهذا المجموع لا يُقبل من الموسيقى إلاَّ على انغام واحد من أقانيمها الثلاثة : النغم

ويرجع ذلك الى مدى الثقافة في الناس ، فالموسيقى تقع في كل نفس على مادَّة حساسة تلائمها ، وفي النفوس البشرية — على اختلاف طبيعتها — أوتار تتأثر بمقدار ما يتهيأ لها من الحس فهي لا تحتاج الى تربية او ثقافة ، الى معرفة أو علم. أما اذا ثقفت هذه النفوس فيتوزع طربها وشجوها على مختلف حواس الانسان ويقويان بقوة الثقافة ، فالموسيقي أو العارف بالموسيقى أشد تأثراً بالنغم من الدهماء فهؤلاء الاخيرون يحسون بهذا النغم ، أما العارفون بالموسيقي فيحسون ويرون ويدركون . ففي كل انسان عناصر حساسة تركد منذ نشأتها ولا تستيقظ إلا على محك المعرفة والذكاء — بينما التصوير يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فهناك ألحان ملوَّنة تحرِّك في النفس ما تحركهُ فيها الالحان الموسيقية ، على أن هذه الالحان الملونة تحتاج الى تثقيف العين والشعور لتُدرك وتُحَس ، وهذه الثقافة في العين والشعور نادرة في الناس لأنها نبت الاجتهاد والذكاء والصبر الطويل

كما أن الطبيعة تلوِّن الزهرة بشعورها وذكائها ، هكذا المصور فهو يلونها بشعوره وذكائه فبعد ان يدرس تماوج الالوان في هذه الزهرة تمتزج هذه الالوان بحواسه المدركة المستيقظة وتنسل من أصابعه الى الريشة الفنانة ، واذا النور يغمر كل شيء وينفذ من كل مكان وتدب الحياة في الزهرة . فصورة الفنانة «هدى» مثلاً لا تريك «هدى» كما تريك إياها صورتها الشمسية ، فقد وضع الاستاذ تيصر الجميل على قماشته أحسن ما في نفسه ، فهذه الكآبة الطافية على سيماء الفنانة تبخر من عينيها وفمها وانحناء عنقها أحسها المصور في نفسه قبل ان سالت من

أصابعه على الريشة فعلى القماشة ، فكأني به تناول هذه الكآبة من نموذجها تارها بعينيه وشعوره وذكائه ، فتقفها في حواسه ثم عجنها في لوحة أصباغه ، فلم يعطك الخيال بل أعطاك الروح والحياة ، أعطاك الجوهر . والمصور الصادق كالشاعر الصادق يسمع عظمة الطبيعة في قرارة نفسه ويدرك سحر النور والالوان

وصورة الشاعر « شارل القرم » لا تريك إياه كما تراه في صورته الشمسية فشارل القرم على قماشة قيصر الجميل هو الشاعر الحي كما عرفته عينك وأحبته نفسك . ففي عينيه الساكنتين على كتابه ، وعلى وجهه المغمور بابتسامة خفيفة يتقاسمها الذكاء والسذاجة كأن نفسه مرتاحة الى ما يقرأ ، كأنه أهتدى الى ما يبحث عنه في مطاوي الكتب او في مغالق الآثار ، في هاتين العينين وعلى هذا الوجه سلامة القلب التي لا تحزر الشر حتى في شدقي الذئب ولا الخبث حتى في عيني الثعلب ، والاستسلام البريء ، هذا الاستسلام المألوف في الشعراء

ولا أعتقد ان بين قماشات قيصر الجميل مايبرز لك فكرة نبيلة سامية عن الرجل المفكر الحازم كصورة هذا «الكاهن اللبناني» الصامد بكل ما في النفس البشرية من الشعور بالكرامة . ولا أعتقد ان الفردية اللبنانية أثبتت نفسها بمظهر أقوى كما اثبتت نفسها في هذا الوجه المتسلط ، في هذا الوجه الحامل كل سمات الحزم الشخصي والجرأة الصلبة في كثير من التساهل الانساني ، في هذا الوجه الهادىء الصارم ، هذا الوجه الكاشف عن « فورة الحياة الداخلية المقموعة المشرف على أسرار الضمائر كأن هذه الاسرار تخضع لحدة النظر وتصلب الفم

ومن مشهوري المصورين في لبنان الاساتذة الموراني والألسي وفروخ . وهذا الاخير هو في الحقيقة مؤرخ الحياة الريفية ومصور للاجواء الروحية ، فقد أعرب عن قدسية الطبيعة في لوحات رائعة تنافس عليها الاضواء الحارة والأخيلة الكثيفة فالقرى اللبنانية وأديارها وبيوتها وحناتها وخرائبها ماثلة حية في أصباغه الرومانطيقية الراعشة

وخلاصة القول أن فن التصوير في لبنان وصل الى مستوى جليل — وليس هذا الفن بمستحدث عندنا فقد نبغ فيه منذ قرون ، وفي كنائسنا وأديارنا آثار جليلة منه

الياس ابو شبكة